المشكاة
مجلّة علميّة محكّمة
العدد الســـادس- 2008

الإسلام من خلال وثائق الفاتيكان
المجمع الفاتيكاني الثاني أنموذجا

د . محمد فوزي المهاجر
المعهد العالي لأصول الدين
جامعة الزيتونة (تونس)

تندرج هذه الأطروحة(*) في إطار اختصاص الأديان المقارنة، التي تمثّل شكلا من أشكال توضيح الرؤى والتصوّرات، وترسم معالمها رسما يسهّل استيعابها. وهو السّبيل الأسلم إلى بيان حدود كلّ مقالة. ثمّ إنّ المقارنة تمكّننا من إدراك المسيرة التي قطعتها كلّ فكرة.

إنّ المدار الأساسي لهذه الأطروحة هو البحث في وجهة النظر المسيحيّة الكاثوليكية من الإسلام، إذ يتبين المتتبّع للعلاقات المسيحيّة - الإسلاميّة أنّ الإسلام بعقيدته وثقافته شكّل محور اهتمام للاهوتيّين والباحثين والدارسين المسيحيّين عامّة، والكاثوليك بصفة خاصّة. إذ ظهرت اتجاهات فكريّة ومدارس ومقاربات سعت إلى صياغة هذه المسألة صياغة إستراتيجية معرفيّة، نذكر منها المقاربة العقائدية والمقاربة الفلسفيّة والمقاربة الأنثروبولوجية ثم المقاربة

---

*) أطروحة دكتوراه في العلـــوم الإسلاميّة، ناقشها الأستاذ محمد فوزي المهاجر بالمعهد العالي لأصول الدّين، جامعة الزّيتونة بتونس، بتاريخ 28 فيفري 2007.

الراجعة إلى علم الاجتماع الديني. وقد كان الهدف من هذه المقاربات الحرص على الكشف عن حقيقة هذه العقيدة لبيان مكامن التهافت فيها.

ولا شكّ أنّ هذه المقاربات المتنوّعة والمعاصرة كشفت عن حقائق كثيرة كانت غائبة عن مسيحيّي القرون الوسطى، أو لعلها لامست مناطق كانت محضورة فيما يتعلق بعلاقة المسيحيّة بالديانات غير المسيحيّة عامّة، والإسلام خاصّة. من هنا يمكننا القول أنّ هذه المقاربات الحديثة في الفكر المسيحي الكاثوليكي مثلت مدخلا هامّا للكنيسة الكاثوليكية لتناول الديانة الإسلاميّة بمناهج حديثة. لذلك كانت هذه الأطروحة لا تقتصر على فهم الآخر دينيّا بل تحاول فهمه داخل الدائرة الفكريّة الجديدة التي ينتهي إليها تاريخيّا ومعرفيّا، بل وحتى دينيّا، إنها تحاول فهمه كما يريد هو أن يقدّم نفسه.

وقد رأينا أنّ الدراسات الإسلاميّة الحديثة في مجال مقارنة الأديان - على كثرتها - تفتقر إلى دراسة تقدّم قراءة نقديّة لموقف الفكر المسيحي الكاثوليكي من الإسلام، انطلاقا من قراءة الوثائق الكنسيّة وخاصّة بعد التغييرات الجذريّة التي شهدتها كنيسة العصر الحديث، منذ المجمع الفاتيكاني الثاني (1962 - 1965). وتبعا لهذا تتمحور إشكالية هذه الأطروحة حول الآتي :

- دواعي اهتمام الفاتيكان بالديانة الإسلاميّة وغايته، وآليته المعتمدة في ذلك.
- نظرة الفاتيكان (أو الكنيسة الكاثوليكية) إلى الإسلام وأثر هذه النظرة على العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة.
- التمييز بين وجهتي نظر اللاهوتي الكاثوليكي وعالم الإسلاميّات (أو المستشرق) من الإسلام.
- استقراء المواقف المتضمّنة في المعلن عنه رسميّا من الفاتيكان أو عرضيّا عبر بعض الآباء والمفكرين الكاثوليك.
- بيان أن مظاهر التجديد في الكاثوليكيّة - والتي كانت سببا في تناول الديانة الإسلامية خلال المجمع الفاتيكاني الثاني - تمّت في المستويات التالية :

- مستوى فكري (تعلق بإعادة بناء الفكر الكاثوليكي على أسس الحداثة)
- مستوى هيكلي (شمل تحديث الكنيسة الكاثوليكية، والمجمع).
- مستوى عقائدي (شمل تطوّر الفكر العقدي على ضوء الحداثة / خلاص المسلمين نموذجا).

– لفت الانتباه إلى ما يملكه الآخر من أدوات وما تدور في خلده من انشغالات وما تعترضه من تحدّيات. ومعلوم أن للكنيسة الكاثوليكيّة تصوّراتها الفكريّة والعقديّة التي تحكمها وللفاتيكان رؤيته للعالم وللآخر عامة. كما له رؤيته للإسلام التي تخرج حتما عن التصوّر الإسلامي لذاته وتتناقض معه أحيانا. من هذا المنطلق إذن، خضنا هذه المسألة من أجل معرفة الآخر، إذ دون التعرّف على موقفه ونظرته ورؤاه لا يمكن الحديث عن حوار عميق أصبح عالمنا المعاصر في أوكد الحاجة إليه.

وقد اعتمدنا منهجا علميّا يقوم على القراءة والتحليل والاستنتاج، والربط والنقد والمقارنة. فهو منهج يعتمد المقاربة التاريخيّة الثقافية، لأنّ الحوار المسيحي– الإسلامي في ملامحه الكبرى ليس إلاّ تفاعلا ثقافيا – تاريخيا جرى ويجري بين الشرق والغرب.

وحتى يتسنّى لنا الاستدلال على النقلة النوعيّة في صلب الكاثوليكيّة وبيان تحوّلها من المقاربة العقديّة التي كانت ترتكز على يسوع إلها – التي تردّت فيها خلال فترة القرون الوسطى – إلى المقاربة الرعويّة المؤسّسة على يسوع إنسانا والقائمة على الحريّة الدينيّة وحقوق الإنسان والحوار المسكوني أو بين الأديان (وخاصّة مع الإسلام)، وهي التي خوّلت لها تناول موضوع الديانة الإسلاميّة خلال أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، قسّمنا عملنا هذا إلى بابين كبيرين، يحتوي كل واحد منهما على مجموعة من العناصر الكبرى والفرعيّة :

الباب الأوّل نظري، وقفنا فيه عند أهمّ عوامل التحديث في الكنيسة الكاثوليكيّة، في المستوى الفكري والمؤسّساتي والعقائدي، باحثين عن الآليّات

الفكريّة المتحكّمة فيه وكاشفين عن فحوى الوثائق الكنسيّة في موضوع الديانة الإسلاميّة، وعن أهمّ الأسباب التي أدّت إلى تناولها.

والباب الثاني تطبيقي – عملي، بحثنا فيه عن مدى توفــق الفاتيكان في تطبيق لاهوت حوار منسجم مع المقاربة التحديثية ومستجيب لتوصيات آباء المجمع الفاتيكاني الثاني. غايتنا رصد قدرة الفكر الكاثوليكي في السيطرة على "إشكالية القطيعة و التواصل، التي تردّى فيها الفكر الكنسي–الكاثوليكي خلال الفترة السابقة للمجمع الفاتيكاني الثاني". كما وقفنا من وراء ذلك على المقصد الكنسي من اعتماد المقاربة الحواريّة، أهو الحوار من أجل الأمن والتعايش في كنف الاحترام المتبادل ؟ أم من أجل إقناع الآخر بضرورة الانتماء إلى شعب الله (الكنيسة الكاثوليكية)، أي من أجل الاحتواء ؟

وقد اشتغلنا على مجموعة هامّة من الوثائق الرّسميّة وغير الرّسميّة، تحصّلنا على الكثير منها من حاضرة الفاتيكان بصفة مباشرة أو عن طريق بعض المسيحيين المقيمين في تونس ولبنان ومصر والأردن وغيرها؛ وتتمثّل في مجموعة من الدساتير والقرارات والبيانات المجمعيّة، بالإضافــة إلى مجموعة من الرسائل والخطابات البابويّة.

ومن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في هذا العمل :

- أنّ الإسلام والمسلمين أصبحا من بين أبرز اهتمامات الفاتيكان(الكنيسة الكاثوليكيّة) منذ النصف الثاني من القرن العشرين. وقد جاء هذا التحوّل الجدّي للكاثوليكيّة منذ انتخاب البابا يوحنّا الثالث والعشرين **(1958 – 1963)**.

لقد أصبحت الكاثوليكيّة تترسّخ وتتأكّد عبر قدرة الكنيسة على التوافق مع كلّ مرحلة تاريخيّة ومع كلّ ثقافة، وبالتالي كلّ ديانة مغايرة. وقد استنتجنا في هذا الاتجاه، أنّ وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني **(1962 – 1965)** كانت الإطار التمهيدي والمرجعي لمناقشة علاقة الكنيسة بالتقاليد الثقافيّة الدينيّة المغايرة للكاثوليكيّة؛ إنّها الرّحم الذي أنشأت فيه ذهنيّة الانفتاح على الآخر.

وهكذا يكون المجمع الفاتيكاني الثاني هو المجمع الأوّل من نوعه الذي يتحدّث بصورة إيجابيّة عن الإسلام والمسلمين، معترفا "بوضعهم الديني المتميّز". لهذا شبّهت بعض الدراسات الكاثوليكيّة هذا التغيير الحاصل في موقف الفاتيكان من الإسلام بـــ"الانقلاب الكوبرنيكي" لأنّه أقام قطيعة معرفيّة مع كلّ التقاليد الكاثوليكيّة القروسطيّة تجاه الإسلام والمسلمين، وفسح المجال لدراسات أكثر جدّية وموضوعيّة لهذا الدين.

ولا شكّ في أنّ هذا الموقف الجديد بني على أنقاض المنطق الشمولي والمتزمت لكنيسة القرون الوسطى، إذ أكّد آباء الكاثوليكيّة ولاهوتيّوها في العصر الحديث أنّ هذا المنطق القروسطي قد صاحب الكاثوليكية إلى حدود النصف الأوّل من القرن العشرين. «إنّه موقف وضع الكنيسة خارج الوسط الاجتماعي – الثقافي، لأنّه أقام تعارضا واضحا بينها وبين "العالم" ؛ فكأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة والعالم ــ خلال تلك الفترة ــ يشكّلان خيارين ينفيان بعضهما أو يلغيان بعضهما». إنّه ولا شكّ أمر يتناقض مع الوظيفة الأساسيّة لهذه المؤسّسة وهي استقطاب أكبر عدد ممكن من أبناء هذا العالم.

وتبعا لذلك وعى آباء الكنيسة الكاثوليكية أنّه لا بدّ من خلق الحوار بين الكنيسة والعالم لإزالة التباعد وإحلال التعاون البنّاء الذي يهدف قبل كلّ شيء إلى الحفاظ على كرامة الكائن البشري وتقدّمه.

- أنّ آباء الكنيسة الكاثوليكيّة خلال فترة القرن العشرين انتهجوا منهجا جديدا يسعى إلى "العالميّة" التي تقوم على "دمج" و "خلط" مجموعة من القيم المختلفة (يهوديّة ومسيحيّة وإسلامية وبوذيّة وفلسفيّة وعلميّة...).

إذن هو اختيار جديد يهدف إلى الجمع لا إلى التفرقة والإقصاء، إنّه يعتمد "الحوار" أسلوبا لإقامة العلاقة مع "الآخر" والتواصل معه. وإنّ هذا التواصل لن يتمّ إلاّ عبر "المعرفة العميقة" بالآخر. ومن هنا جاء اهتمام الفاتيكان بالإسلام والمسلمين.

وبهذه الكيفيّة إذن يصبح "للحوار" داخل المؤسّسة الكنسيّة دور ريادي وهامّ لأنّه الطريقة المثلى لاستضافة الآخر والتعامل معه.

وتبعا لذلك أيضا يكون الأسلوب الحواري داخل الفاتيكان هو البديل الأصحّ "للتبشير"، نظرا لكون هذا الأخير لم يعد مجديا وهو غير كاف على الإطلاق. وبناء على ذلك يكون تحوّل الفكر الكنسي – اللاهوتي، هو الذي أدّى إلى إعادة النظر في مفهوم الرسالة المسيحيّة ومهامّ الكنيسة في عالم اليوم.

• أنّ خلاص غير المسيحيين ـ الذي تتحدّث عنه وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني ـ رهين الدخول في الكنيسة، أو بالأحرى الاهتداء إلى هذه الكنيسة. إذن يستنتج من خلال ذلك، أنّ الكنيسة لا تزال ضروريّة للخلاص، تبعا لإقرار وثائق المجمع الأخير، وخاصّة في الفقرة الرابعة عشرة من دستوره العقائدي في الكنيسة أن "المسيح هو وسيط الخلاص وصراطه...".

من خلال كلّ هذا، أدركنا أنّ وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني تتحدّث عن مرتبتين للخلاص: الأولى يمكن وصفها بأنّها "آنـيـّة" (تمهيديّة– وقتيّة)؛ والثانية "أبـديـّة"، لكنّها مشروطة بانتماء كلّ هؤلاء المخلّصين إلى الكاثوليكيّة، التي تقوم على مبادئ الإنجيل وتأويلات الآباء.

وهكذا نصل إلى أنّ الموقف الجديد الذي تتبنّاه الكاثوليكيّة يقوم على التسليم بأنّ تحقيق الكنيسة لأغراضها في نشر الديانة المسيحيّة ومساعدة الناس على اعتناقها، يقتضي منها اعتماد عدّة أساليب، ومن أهمّها في عصرنا الرّاهن "منهج الحوار" لإقناع الآخر بضرورة الانتماء إليها وخاصّة أولئك الذين « فيهم من الصلاح والحقّ ما يعتبر في نظر الكنيسة تمهيدا للإنجيل » (الفقرة 16، من الدستور العقائدي في الكنيسة).

وإنّ من أهمّ أغراض هذا الحوار الكاثوليكي – كما تعتقد الكنيسة – أنّه يساعد الثقافات على تحقيق قيمها الدينيّة والروحيّة الخاصّة. إنّه حوار يقتضي تخطّي حدود الجدل ويدعو إلى الإصغاء إلى الآخر لمعرفته كما يريد أن يكون. إذن هو حوار لا يقوم على التماهي مع الآخر، بل يحترمه في اختلافه وتنوّعه.

ويبدو أن الوثائق الكاثوليكية في هذه المرحلة (الحديثة) تجاوزت مجرّد التنويه بإيمان المسلمين لتخطو خطوة إيجابية تتمثّل في **توخّي منهج تعليمي** تعرض فيه الكنيسة - عن طريق وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني، وخاصّة الفقرة الثالثة من وثيقة في علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية - لعقيدة الإسلام في الله (تعالى) والمسيح ومريم عليهما السلام، والآخرة والأخلاق والعبادات. وترى أنّها خليقة باحترام المسيحيّة. وهي لا تنكر الفوارق القائمة بين إيمان المسلمين وإيمان المسيحيّين.

لهذا استحقّ المسلمون هذه الدعوة إلى الحوار. ويتّضح من (الفقرة السادسة عشرة من الدستور العقائدي، في الكنيسة (Lumen Gentium) أنّ هذه الخصال تعدّ خير تمهيد للإنجيل، وبالتالي للمسيحيّة الكاثوليكيّة، كما يعتقد ذلك آباء الكنيسة.

وفي المقابل ندرك أيضا أنّ الإسلام ليس غريبا عن أسلوب محاورة الآخر والتعايش معه، فهو بتثبيته وإقراره للشرائع السابقة كاليهوديّة والمسيحيّة يكون قد وضع نفسه في مأمن من تهمة التعصّب للرأي.

وتبعا لهذا تصبح الكنيسة مطالبة بمسايرة الثقافات المختلفة ولاسيما الديانات التي تختلف معها، إنّها مطالبة بإقامة علاقات حتى مع أولئك الذين لا ينتمون إلى أيّة ديانة، سواء كانت وضعيّة أو سماويّة. ومن هنا ستشمل المحبّة الخلاصيّة حتى أولئك الذين لم يقبلوا الإنجيل بعد، فتحقّق بذلك أمنية يسوع المسيح الذي كان هدفه خلاص جميع الناس كما تؤكد الكنيسة.

وهكذا يكون التغيير الحاصل في الفاتيكان قد استوجب تغييرا في الرؤى والمناهج والمفاهيم. فالآخر الذي كان ينظر إليه سابقا باعتباره هرطوقيّا أو معاديا لأنه لا ينتمي إلى الكاثوليكيّة، أصبح ينظر إليه الآن باعتباره أخا في الإيمان لأنه يدور مع المسيحيّين حول نقطة واحدة وهي الله تعالى. فالمسلم ـــ حسب وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني ـــ جلب احترام الكنيسة لأنّه من الذين

يشغلهم الدين والإيمان والخير والإحسان كما تؤكد وثيقة في علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية (خاصة في فقرتها الثالثة).

لا شكّ أنّ فكرة الحضارة الكونيّة (العالميّة) الدّارجة في عصرنا الرّاهن والتي تتميّز خاصّة بالتعدّديّة العقائديّة (في الديني والفكري والسياسي..) تقتضي منّا فهم ديناميّة الصلات والعلاقات المعاصرة والمتشابكة بين الشرق والغرب، والتي تستوجب بدورها الإحاطة الجيّدة بخصوصيّة العلاقات الدينيّة بين الطرفين (المسيحي والإسلامي). إذ أنّ هذه العلاقات الدينيّة تبدو أحيانا متشابكة ومتداخلة كليّا أو جزئيّا مع الميادين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في إطار التفاعل الثقافي.

النّشاط الفكري والثّقافي

بجامعة الزّيتونة خلال سنة 2008

ع/ر	التّاريخ	المنظّم	نوعيّة النّشاط
1	2008/2/ 11	المعهد العالي لأصول الدّين بتونس	محاضرة بعنوان : **الظاهرة الدّينية لدى الإنسان**
2	20-21-2008/2/22	جامعة الزّيتونة ووزارة الشّؤون الدّينية	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **التّرجمة إثراء للثّقافات ودعم لحوار الحضارات**
3	2008/3/11-10	مركز الدّراسات الإسلاميّة بالقيروان	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **آراء محمد الطاهر ابن عاشور ومحمد حسين الطّباطبائي**
4	12-13-2008/3/14	المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة بتونس	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **التّنوير عند علماء الزّيتونة في النّصف الأول من القرن العشرين**
5	10-11-2008/4/12	مركز الدّراسات الإسلاميّة بالقيروان	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **علم الكلام بين الأمس واليوم**
6	2008/4/16	وحدة بحث الحديث والسّيرة (المعهد العالي لأصول الدّين بتونس)	يوم دراسي بعنوان : **السّيرة النّبويّة في كتابات المسلمين فقها وتمثّلا**
7	2008/4/19	وحدة بحث فقهاء تونس (المعهد العالي لأصول الدّين بتونس)	يوم دراسي بعنوان : **الشّيخ مصطفى كمال التّارزي**
8	2008/4/23	مركز الدّراسات الإسلاميّة بالقيروان	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **المناهج التّعليميّة ومواكبة العصر**
9	2008/4/23	المعهد العالي لأصول الدّين بتونس	يوم دراسي بعنوان : **حماية ضحايا النّزاعات بين الفقه الإسلامي والقانون الدّولي الإنساني**
10	2008/4/25	المعهد العالي لأصول الدّين بتونس	محاضرة بعنوان : **القانون الدّولي الإنساني**
11	2008/4/30	المعهد العالي لأصول الدّين بتونس	محاضرة بعنوان : **مجتمع المعلومات وعلاقته بالتّنمية**

ع/ر	التّـــاريخ	المنظّـــم	نوعيّـــة النّشاط
12	2008/9/24	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	مسامرة رمضانيّة بعنوان : **العلـــم والإيمـــان**
13	2008/10/9-8-7	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس و مؤسّسة كونراد أديناور	ندوة علميّـــة دوليّة بعنوان : **التّآلف والوئـــام بين الأديان والتّحديات الثّقافيّة الرّاهنة**
14	2008/10/29	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	محاضرة بعنوان : **معاداة المسلمين للعلم واقع أم تهمـــة : حرق مكتبة الإسكندرية نموذجا**
15	2008/10/30	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	محاضـــرة بعنوان : **المكاسب والإنجـــازات الدّينيّة في عهـــد التّحول**
16	2008/11/15	مركـــز الدّراسات الإسلاميّـــة بالقيروان	يوم دراسي بعنوان : **التّعليم العالي والبحث العلمي والتّجديـــد التّكنولوجي في تونس**
17	2008/11/25	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	يـــوم دراســـي بعنـــوان : **ترجمـــة النّص الدّيني**
18	2008/11/26	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	محاضرة بعنوان : **إشكـــاليات ترجمـــة النّص الدّينـــي**
19	2008/12/4-3-2	وحدتا بحث تاريخ جامعة الزّيتونة وفقهاء تونس (المعهد العالي لأصـــول الدّين بتونس)	ندوة علميّة دوليّة بعنوان : **الزّيتونة والعالم العربي والإسلامي : إشعاع في الماضـــي وتواصل في الحاضر**
20	2008/12/5	جامعة الزّيتونة	محاضرة بعنوان : **المعايير الكونيّة للكرامة البشريّة في فلسفة حقوق الإنسان**
21	2008/12/11	المعهد العالي لأصـــول الدّيـــن بتونس	محاضـــرة بعنوان : **حقوق الإنسان في ضـــوء العـــولمة**
22	2008/12/12	المعهد العالي للحضارة الإسلاميّة بتونس	محاضرة بعنـــوان : **حقوق الإنسان في تونس من خير الدّين باشا إلى الرّئيس بن علـــي**
23	2008/12/13	مركز الدّراســـات الإسلاميّـــة بالقيروان	محاضرة بعنـــوان : رعايـــة **حقوق الإنســـان وتطويرها وحمايتها والدّفـــاع عنها من ثوابت سياسة التّغيير**